ISSN: 2750-6142

المجلد 2، العدد 3، 2023
Vol : 2 / N° 3 : (2023)

المجلة العربية لعلم الترجمة
Arabic Journal for Translation Studies

Critisizing Western Cenralization Through Translating Walter B. Harris' "*France, Spain and The Rif*"

Soufiane Laachiri
Hassan II University of Casablanca. Morocco
Email : soufiane.laachiri@gmail.com

Received	Accepted	Published
29/06/2022	12/04/2023	16/04/2023

DOI: 10.17613/dxnq-k573

Abstract

The present study is a recovering attempt to test our national consciousness that has been flactuating between the past and the present. This consciousness is fostered through translating a very important reference on the history of Morocco entitled France, Spain and The Rif by the British correspondant for The Times Magazine Walter Burton Harris. The book was written by the British correspondent for the Times Magazine, Walter Harris whose main mission was to justify the colonial enterprise and compel the Moroccan other to accept the version of himself that the colonizer was trying to formulate. His unregimented subjectivity and hegemonizing representations have become 'fragile images' when analyzing and translating his discourse, thus, placing the book by the side of the bed for the Arab reader to understand that the linguistic flaws and the colonial masks will always fail to destroy our self-awareness and cultural identity.

Keywords: Walter Harris, Egocentrism, Soft Penetration, Colonial Discourse, Colonial Representation

المجلة العربية لعلم الترجمة
Arabic Journal for Translation Studies
المجلد 2، العدد 3، 2023
Vol : 2 / N° 3 : (2023)
ISSN: 2750-6142

نقد المركزية الغربية من خلال ترجمة كتاب "*فرنسا، إسبانيا والريف*" للصحفي البريطاني والترهاريس

سفيان العشيري
جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء. المغرب
الايميل: soufiane.laachiri@gmail.com

تاريخ الاستلام	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2022/06/29	2023/04/12	2023/04/16

DOI: 10.17613/dxnq-k573

ملخص

هذه الدراسة هي نظرة استرجاعية تهدف إلى اختبار الوعي الذاتي بين الماضي والحاضر من خلال ترجمة كتاب للصحفي والرحالة والجاسوس البريطاني والتر بورتن هاريس المعنون بفرنسا، اسبانيا والريف. وهو من أهم الكتب التي كتبها هذا المراسل حول المغرب قبيل وخلال الحقبة الاستعمارية. وهو كتاب يطفح أيضا بتصورات ميتافيزيقية وأحكام تبخيسية تروم إيجاد مبررات للاستعمار الأوروبي قصد ضبط شؤون البلد المستعمَر وإلحاقه بركب الحضارة الغربية. غير أن المغالاة في التمثيل والتكثيف والاختزال جعلت هذا الخطاب يقع في شراك التناقض والتنميط، حيث أيقظ صوت الآخر المغربي الذي تمّ إسكات صوته لفترة طويلة. وبذلك تكون هذه الدراسة قد رسمت ملامح دور المثقف المغربي الذي أحيا بالسم وقتل بالدواء، أي استوعب غطرسة خطاب التمركز الميتافيزيقي الذي دسه الاستعمار وأعوانه وقاومه بنقد المقولات المركزية التي جاء بها لعلاج تخلف وجهل الآخر المغربي المنغلق على يقينياته التقليدية حسب زعمه.

الكلمات المفتاحية: والتر هاريس، المركزية الغربية، التغلغل الناعم، الخطاب الاستعماري، التمثلات الاستعمارية

تقديم

تروم هذه الدراسة إلى توجيه اهتمام القارئ العربي عموما نحو قراءة متأنية لتاريخ مرحلة مهمة من تاريخ المغرب، والتي تكتسي أهمية كبرى من حيث أحداثها، وسياقها المحلي، والإقليمي، والدولي. تلك المرحلة التي تؤرّخ لفترة توقيع معاهدة الحماية الفرنسية على المغرب والإرهاصات التي سبقتها والنتائج التي خلّفتها في السنوات الموالية، خاصة وقد تزامنت مع الحرب الكونية الأولى وما كان لها من آثار كبيرة على القوى المستعمِرة والبلد المستعمَر.

ولعل من أبرز حوافزنا لإخراج كتاب الصحفي البريطاني والتِرْ بورتِن هاريس من غياهب متحف المفوضية الأمريكية بطنجة وترجمته إلى لغة عربية كلاسيكية هو ما لمسناه من أهمية هذا الكتاب التاريخية لكونه يندرج في مجال أدب الرحلة. كما أنه يعتبر بمثابة موسوعة علمية تحكي عن حقبة تاريخية بأحداثها السياسية والعسكرية. كما أنها تصف المجتمع المغربي وسلاطينه، ونظام حكمه، وزواياه، وثقافته، وعاداته، ومناخه، وجغرافيته، ومعماره، وغطائه النباتي، وخليط أجناسه، وحتى جنّه. وكل هذا العمل 'الجليل' الذي قام به والتر هاريس ظل طي النسيان لمدة طويلة من الزمن، ولم يستفد منه غير من أرسله إلى طنجة سنة 1887 وبنى له صرحا - يسمى الآن فيلا هاريس - في ضواحيها عله يبلغ الأسباب ويرسم ويصور ويمهد للامبريالية الأوروبية عبر رحلاته المكوكية بين طنجة، عاصمة الدبلوماسية المغربية، وفاس عاصمة السلطة المركزية وشفشاون، بلدة جبالة الروحانية، وبني عروس، معقل صديقه وخاطفه في نفس الوقت أحمد الريسوني[1]، والريف، أرض "المقاومة الخطابية".

وعندما نحضر هذا النوع من الخطابات إلى معول الترجمة، فإننا بذلك نبلور وعيا بالذات التي تترجم ما قيل عنها، وندحضُ إسقاطات الآخر ومقولاته المركزية من خلال فضحها ونشر غسيلها، وتبيين مكامن الخلل في أحكامها. كما أن اعتمادنا على مقاربة جاك ديريدا التفكيكية وادوارد سعيد الما بعد كولونيالية لتحليل هذا الخطاب وترجمته بغرض تشريح صورة قائله، تجعل أسلوبه سلسا بسبب مآزقه الكثيرة، وبالتالي تسهل ترجمته.

[1] أحمد الريسوني: قائد جبالة وأحد أبرز الوجوه السياسية والعسكرية خلال فترة الحماية.

من هو والتر هاريس؟

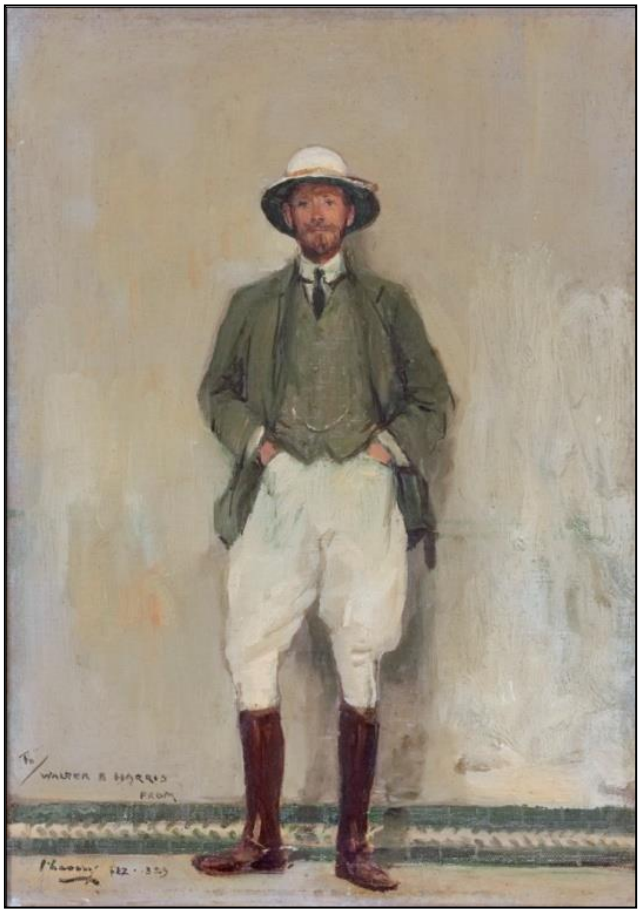

والتر هاريس
صورة من ألبوم يونس الشيخ علي

يعتبر المراسل البريطاني لمجلة التايمز والتر بورتن هاريس من أشهر الرحالة والمستكشفين الانجليز الذين زاروا المغرب، ومن أطولهم مكوثا بهذا البلد، حيث استمر مقامه لأكثر من ثلاثين سنة. لقد ولد ونشأ في لندن في بيئة عائلية تمتلك مقومات مادية واقتصادية محترمة، حيث كان والده السيد فريديريك هاريس مضاربا مشهورا ومتخصصا في عمليات الشحن التجارية. كما أن أخوه السيد أوستين ادوارد هاريس سلك نفس الطريق ودخل القطاع المصرفي حيث حقق ثروة كبيرة من جراء ذلك. وتحقق حلم العائلة بوصول أحد أبنائها وهو السيد فريديريك ليفرتون هاريس إلى قبة مجلس العموم البريطاني وحاز مقعدا هناك. لقد ساهم هذا الوضع المالي والاجتماعي في تحسين المسار الدراسي والعلمي لوالتر هاريس، حيث تم إرساله إلى مؤسسة هاروڤ بلندن والتي تعتبر من أكثر المدارس شهرة في بريطانيا والعالم، لتلقي تعليمه هناك رفقة مجموعة من المحظوظين من أبناء الطبقة الميسورة في ذلك الإبان. بعد ذلك ألتحق بجامعة كامبريدج والتي لم يكمل تمدرسه بها حتى جاءته فرصة الاقتراب من عالم السياسة والاستكشاف المكاني. فسافر في بعثة دبلوماسية سنة 1887 لم يُعرف دوره فيها نحو' *مملكة السلطان*

الإفريقي'[2]، كما يسميها وهو في سن العشرين، ومكث هناك طول حياته إلى أن مات بسكتة دماغية وهو في طريقه إلى مالطا سنة 1933. فأعيد جثمانه الى طنجة ودفن بها حسب وصيته، وبالضبط في الكنيسة الأنجليكانية وعلى الطريقة الشرعية الإسلامية[3].

لقد جاء هاريس إلى المغرب ضمن بعثة إنجليزية دبلوماسية سنة 1887، والتقى بسلطان المغرب آنذاك، مولاي الحسن الأول في مراكش. وكان استقبالا مهينا كما وصفه بذلك، حيث ظل الوفد واقفا تحت أشعة الشمس الحارقة في انتظار خروج السلطان من قصره العامر والتكرم بقبول هدايا الوفد والتحدث مع أعضائه لبضع دقائق قبل الرجوع في موكبه المهيب إلى داخل أسوار القصر وتحت هتافات عبيده وهم يرددون ' الله يبارك في عمار سيدي.'

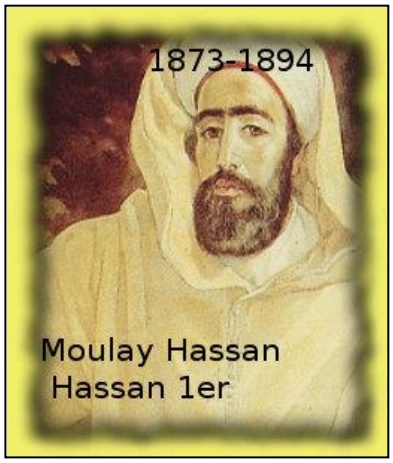

مولاي الحسن الأول

قبر والتر هاريس بالكنيسة الأنجليكانية بطنجة حيث يرقد جثمانه متجها القبلة ولايوجد أي رمز مسيحي فوقه

[2] *مملكة السلطان الافريقي* هي ترجمتنا لكتاب والتر هاريس *The Land of An African Sultan*

[3] شهادة شفهية لحارس المقبرة يرويها عن أبيه الذي عاصر هاريس وكان يسكن في قرية الرمان ضواحي طنجة والتي كان هاريس يخطب الجمعة في مسجدها.

لقد كان هذا التمثيل الغرائبي لطقوس استقبال السلطان مُخلا بعنصر الصدق والوضوح، حيث غابت عنه المستويات الثقافية والتاريخية. فخروج السلطان، حسب الطقوس المعمول بها، لا يكون إلا لاستقبال الأجانب الغرباء نظرا لاختلاف دينهم وعرقهم، وكذلك لأن قصر السلطان يكتنف بين حناياه حريمه، ودور عبادته، وبيت ماله وأماكن خلوته. وكل تلك الأشياء السالفة الذكر هي بمثابة قدس الأقداس من ناحية الدين والتقاليد. فحكم هاريس على سلوك السلطان الانغلاقي لم يكن من منطلق قلة معرفته بتلك التقاليد أو حداثة عهده بها، ولكن من فضوله المعرفي ورغبته الموسومة باكتشاف هذا العالم المتخيل الذي يغري بالدراسة والاستكشاف، والذي جعله يلح في مبتغاه إلا أن تأتى له ذلك مع السلطان مولاي عبد العزيز بن الحسن، حيث أقنعه باستقبال الأجانب داخل قصره. وبذلك دخلت الآلة الاستخباراتية إلى بلاط السلطان للتشويش على ذاك الانغلاق الرهيب.

طقوس استقبال السلطان للأوروبيين خارج أسوار القصر

الأقنعة المدهشة والتغلغل الناعم

لقد انطلق هاريس بعد ذلك في رحلة المغامرة والاستكشاف بعد أن استهواه البلد، ومناخه، وشعبه، وتقاليده. فتحولت رحلته القصيرة إلى مُقام طويل دام لأكثر من ثلاثة عقود. خلال هذه الفترة عمل مراسلا لمجلة التايمز البريطانية حيث أمدها بالتقارير والصور والأخبار التي حصل عليها من المغرب. كما أنه تعلم لغة البلد وتمثّل تقاليده وديانته وكل ما من شأنه أن يساعده على التغلغل والوصول إلى أبعد نقطة لم تطأها قدم أجنبي من قبل. ومما ساعده في ذلك هو تنكره بجلباب محلي

وعمامة صفراء ولحية مصبوغة بالحناء وادعائه لانتمائه لقبيلة غمارة واستعماله للقب ' العيساوي'[4] نسبة إلى أتباع الشيخ الهادي بن عيسى المكناسي. كما ساعدته قدرته على الرطانة باللغة المحلية والعربية الفصحى على التواصل بكل طلاقة وأريحية مع السكان المحليين. لقد تمكن هاريس من دخول شفشاون، بلدة جبالة الروحانية التي لم تطأها أي قدم أجنبي من قبل كما يعبر بنفسه عن ذلك في كتابه مملكة *السلطان الافريقي*. وخاصة في الفصل الذي عنونه "بالطريق الى شفشاون." وظل ينتشي بهذا السبق حيث لم يفته التذكير بأن الأجنبين الآخرين اللذين نجحا في الوصول الى شفشاون وهما المستكشفان القس ' شارل دي فوكو[5] والطبيب 'ويليام سامرنز'[6] كان مصيرهما القتل والتسميم، بخلافه الذي عاد سالما غانما من هناك. لقد استعمل هاريس عند وجوده في المغرب أقنعة مدهشة حيث مكّنته من إمامة الناس في قرية الرمان ضواحي طنجة وهو على دينه المسيحي. كما مكّنه سلوك التخفي من دخول فاس، المدينة الروحانية التي ظلت بعيدة عن التدخل الأجنبي لعدة قرون. أضف إلى هذا أن وضعه المادي ومكانته الاجتماعية قد منحاه فرص الالتقاء بكبار الساسة ومن هم في قمة هرم السلطة من سلاطين ووزراء وقادة حرب، حيث أصبح صديق مولاي عبد العزيز ووزيره العربي المنبهي. كما أنه التقى بقادة جبالة والريف، كان أشهرهم عبد الكريم الخطابي والريسوني والقائد أزرقان وغيرهم. كما أنه رافق الماريشال ليوطي والجنرال بريمو دي ريفيرا في عدة مناسبات. وكان لاستقراره بمدينة طنجة دور كبير في جمع المعلومات والاتصال بمثلي القوى الأجنبية وجواسيسهم، حيث اتكأ على أقوالهم وأفكارهم وصهرها مع تصوراته الغربية لتهيئ تربة خصبة في انتظار البذور الامبريالية التي ستأتي لاحقا في ركاب آلة الاستعمار التقليدي. لقد كانت جهود هاريس مؤسِّسة ونسقية لأنها عملت على تصوير الآخر المغربي وتمثيله ضمن استراتيجيات خطابية محددة. كما أن قراءاته 'المتبصرة' لواقع الحال بالإضافة إلى كتب ودراسات ونصوص أرشيفية منحته لقب 'ليون المغرب' أسوة 'بليون الإفريقي' الذي سبقه إلى مجال وصف الدول وتقديمها إلى من يهمهم الأمر.

والتر هاريس متخفيا بزي مغربي

[4] 'العيساوي' هو لقب كان يتخفى به هاريس حيث أطلقه على نفسه وسار متداولا بين من يعرفونه من سكان البلد. وهذا اللقب كان يطلق على أتباع الزاوية العيساوية التي كان لها صيت كبير في المغرب في تلك الفترة. كما أنه كان يلبس جلبابا بنيا قصيرا ويحي رأسه الحليق بعمامة صفراء ويصبغ لحيته الشقراء بالحناء ليكتمل القناع ويسهل تغلغله داخل المغرب.

[5] شارل دي فوكو: كان ضابطا فرنسيا وتحول الى رحالة وقس كاثوليكي، حيث جال الصحراء وعاش بين الطوارق. كما أنه دخل المغرب وكتب كتابا حول رحلته الى هناك عنونه ب التعرف على المغرب 1883 ~ 1884. (دانييل ريفي. تاريخ المغرب: من مولاي ادريس الى محمد السادس.)

[6] وليام سامرنز: طبيب انجليزي دخل المغرب في نهاية القرن 19.

يتضح مما سبق بأن تنكر هاريس كان له دلالة كبرى تتجاوز الزمان والمكان ويمكن فهمه وقراءته في سياقات أخرى لا تقتصر على الهندام والمظهر الخارجي، بل من خلال كل الوسائل التي استعملها ومن بينها اللغة. لقد تنكر هاريس من خلال كتابته المسطورة والتي يسميها دو سوسير "رداء فسق وانحراف" و"قناع من أقنعة الأعياد التي ينبغي فك سحرها" (دو سوسير، 1916)؛ ولا نحتاج الى الدخول في السجال الذي رافق هذا التوجه عند البنيويين لأننا سنصطدم مع المدرسة التفكيكية التي ترفض "اعتباطية العلاقة اللغوية بين الدال والمدلول" (ناذر، 2004، ص 135)، ذلك لأن دو سوسير يعتبر الكتابة "مدلول له كيان"، فيحين يعتبرها ديريدا "دالا لا ينفصل عن الكلام". ومن هنا نستنتج بأن الكتابة عند هاريس لا تخلو من حضور مدلول ودال وتبقى مستمرة بغياب منتجها "موت المؤلف." لكن تلك الكتابة تكتسي مرونة كبيرة اذ يمكن قراءتها في سياقات أخرى متباينة. ولا يمكن انكار قدرة هاريس على مراوغاته النصية حيث يبدو نصه في لا استقرار دائم، اذ يؤجل نفسه ويستعصي على الظهور، يترك بصمات شبحية تستدعينا الى قراءة آثارها وفهم تمثلاتها الميتافيزيقية.

ومن بين أساليب التغلغل الناعم عند هاريس هي عملياته التوثيقية المرتبطة بالتقاطه لعدد كبير من الصور وتضمينها في كتبه ومقالاته. تلك الصور التي لم تأخذ طابعا فرجويا بقدر ما تشكل رؤية وموقفا من 'النحن' و 'الهم' بتعبير ادوارد سعيد. كما أنها محاولة من هاريس للتملص من عقيدته الامبريالية واحداث مشاكل للقراءة النقدية لتلك الصور التي لا يمكن مقاربتها الا من داخل منطلقات الهوية والأنطولوجيا، و "تداخل الحضور والغياب والإيجابي والسلبي" بتعبير جاك ديريدا.

التصوير الفوتوغرافي

لقد كانت منطلقات هاريس تنطوي على نزعة تنميطية وتحريضية في نفس الوقت. فوجود ذاك الكم الهائل من الصور في كتبه ومقالاته يطرح أكثر من سؤال. فهل هي طقوس شكلية مظاهرية في الكتابة عند هاريس؟ أم أنها سر المهمة التي جاء لإنجازها وهي شرعنة المقولات المركزية والتمهيد للامبريالية. ومهما تكن مبررات هاريس، فان فعل التصوير الفوتوغرافي في تلك المرحلة كان ينتظم في مشروع خطابي 'غربوي' يروم الترويج لمبررات الاستعمار المغشّاة في أثواب التحضير والحماية. ومما يزيدنا يقينا بهذا الأمر هو انخراط كل من فرنسا واسبانيا في هذا المشروع الذي اصطلح عليه "الاستعمار الناعم" من أجل فهم المستعمرة أولا ثم ضمها وإلحاقها لاحقا. ففي كتاب *في صحبة السلطان* الذي كتب سنة 1905 وترجمه إلى العربية عبد الرحيم حُزل، يمكن أن نستنتج الأدوات المسخّرة من طرف فرنسا لدراسة مستعمراتها قبل التدخل العسكري المباشر. فكاتب الكتاب ليس إلا المصور الفوتوغرافي الفرنسي غابرييل فير (1871-1936) الذي دخل البلاط السلطاني وصار صديقا للسلطان، فأصبح كتابه بمثابة وثيقة تمهيدية للاستعمار. ولم يقتصر عمله على التصوير فقط، بل أصبح من حاشية السلطان يوثّق تحركاته، وأنشطته، وسكناته بالصور، والمقالات. وكان الفرنسيون قد لقبوه "بمهندس السلطان." (فيير، 1905).

وهناك رواية أخرى تقول بأن فرنسا أرسلت مصورها بعد أن علمت بأنّ بريطانيا تستعد لإدخال مصورها إلى البلاط السلطاني ليكون موثقا لتلك الحقبة التاريخية. غير أن دهاء فرنسا وحصافة رأي السلطان جعل المصور الفرنسي هو الأقرب للظفر بهذا المنصب، وذلك بعد ما تم التأكد من خبرته في مجال التصوير والتوثيق الفوتوغرافي. وهكذا أصبحت صوره فيما بعد مادة علمية تدرس في ردهات مخافر المخابرات العسكرية والصالونات السياسية والدوائر الاستعمارية.

إنّ بحثا معمّقا حول موضوع الصورة الاستعمارية ودورها في تهيئ أرضية المستعمرات كي تصبح فيما بعد في حوزة الامبريالية، يحيلنا على مبحث متشعب تتقاطع فيه السيميائيات مع الاستشراق والتاريخ والاثنوغرافيا وغيرها من المباحث التي شكلت نواة البحث العلمي في الدراسات 'ما بعد الحقبة الاستعمارية'[7] (Postcolialism). لقد شكلت نظريات ادوارد سعيد التي عبر عنها في كتبه التي أسست لهذا الاتجاه وخاصة *الاستشراق والامبريالية والثقافة*، منطلقا أساسيا لفهم وتفسير ذلك اللقاء العاصف الذي يحدث دائما عند لقاء الاستعمار مع شعوب الجنوب. ومن ضمن النقاط التي يتطرق اليها سعيد هي " التمثيل والحفر المعرفي" (سعيد، 1993، ص 3)؛ وأهم ما يتم التمثيل به هو الصور الفوتوغرافية.

وهكذا أعتقد بأن التصوير الاستعماري في المغرب ركّز على شيئين رئيسيين: أولهما تصوير كل شيء يتحرك من بشر ودواب وأدوات، وثانيهما تصوير جغرافية البلد ومعالمه الطبيعية. وإذا بدأنا بالموضوع الثاني، يمكننا القول بأننا لاحظنا عند دراستنا لبعض الصور التي ضمنها هاريس في بعض كتبه، بأنها لا تحوي شيئا ذا أهمية فنية أو تذكارية تذكر. غير أنّ المصور الاستعماري كان يعلم علم يقين أن الحجر والشجر اللذان تلتقطهما عدسته سيفيدان لا محالة في التعرف على البيئة الجغرافية والمناخية للبلد الذي تنوى حكومته ضمه بصفة رسمية إلى ملكيتها. فلم تكن الدراسات التي قام بها المستكشفون كافية بقدر ما كانت الصور الفوتوغرافية. فكيف نفسّر مثلا تصوير والتر هاريس لبعض المناطق في شمال المغرب تهبّ فيها رياح الشرقي الموسمية وارتباطها بحركية المد والجزر وعلو وانخفاض الموج؟ لقد ركّزت هذه الصور بالأساس على خليج الحسيمة وشاطئ غمارة وشاطئ القصر الصغير. ولا عجب أن ندرك أن اسبانيا الاستعمارية دكّت منطقة أنجرة انطلاقا من شاطئ القصر الصغير، وقامت بإنزال جنودها بخليج الحسيمة لاحتلال الريف بعد أن قامت بإنزال مضلّل بشاطئ غمارة. وكل ذلك حصل بتصوير تمهيدي وتنسيقي بين فرنسا واسبانيا وبريطانيا. وتجدر الإشارة أن كل القوى الاستعمارية في تلك المرحلة، رغم اختلاف الرؤى، كانت توفر كل الوسائل اللوجستيكية خدمة للمشروع الاستعماري الكبير. ولنضرب مثلا ببريطانيا التي لم تكن في يوم من الأيام من الدول المستعمرة للمغرب عدا مدينة طنجة. لكن فضولها ورغبتها في إثبات حضورها في كافة بقاع المعمور جعلها ترسل أكثر من مراسل إلى تلك البلدان كي تكون على اطلاع دائم بما يجري هناك. وخير دليل على ما نقول هو ما توفر لدينا من صور ووثائق تعود لوالتر هاريس والتي كان يرسلها الى مجلة التايمز البريطانية وعن طريقها الى من يهمهم الأمر في سفارات فرنسا واسبانيا بلندن. ولا يشك دارس أن صوره التي التقطها خلال نزهته إلى خليج الحسيمة لم تكن محض مصادفة، بل دراسة جيواستراتيجية لعملية إنزال الجنود بمساعدة من فرنسا ودعم من بريطانيا والقوى العظمى. وكيف لا نجزم بتواطؤ كل القوى الاستعمارية وهو الذي اعترف بذلك في كتابه *فرنسا، إسبانيا، والريف*[8] باستدعائه من طرف قائد الحرب الاسباني الجنرال بريمو دي ريفيرا لتصوير فيلق تطوان بعد تحريره لكدية الطاهر، نواحي تطوان، ولإخبار الحكومة البريطانية بأن الجنرال وبخ جنوده المنتصرين على قيامهم بأعمال انتقامية في حق 'متمردي جبالة'[9] وهذا يدل على أن التصوير والتوثيق كانا يلعبان دورا رئيسا في دعم التنسيق والتحالف بين القوى الاستعمارية في تلك الفترة.

[7] عبد الرحيم حُزل: أكاديمي ومترجم مغربي، من أهم ترجماته كتاب في صحبة السلطان لكاتبه غابرييل فير.

[8] من أهم الكتب التي كتبها هاريس حول المغرب وترجمت الى العربية من طرف الدكتور سفيان العشيري.

[9] تم استعمال هذه العبارة بين مزدوجتين لإبداء موقفنا المعارض لها. غير أن الوفاء للترجمة جعلنا ننقلها كما وردت في كتاب هاريس.

غير أن الاستعمار الفوتوغرافي التمهيدي لم يقتصر فقط على تصوير مناطق إنزال الجنود ومواقع 'المتمردين' والدواوير والجبال، بل ركز في كثير من الأحيان على ما يسميه هومي بهابها،"باللقاء الفني مع الإمبراطورية" (بهابها، 2012، ص 10). وكما أسلفنا الذكر فان المصور الاستعماري سواء أ كان عسكريا أم مدنيا فان موضوعات التصوير تنوعت لديه بتنوع خلفياته وأهدافه، إذ رغم توحد في القصد، إلا أن الاهتمامات تتشعب أحيانا. وهكذا نجد أن المرأة مثلا شكّلت موضوعا جديرا بالاحتفاء عند المصور الفوتوغرافي الأوروبي. فتارة تصور بتلك الكائن المهضوم الحقوق الذي يثير الشفقة بمظهره وهي تحمل أكواما من الحطب على ظهرها. وفي انحناءتها المهينة يبرز دور المصور الذي لم يأخذ لها تلك الصورة في غابات الريف، بل في الشارع الرئيس لمدينة طنجة. فكما أن الحداثة قد أتت مع الإدارة الاستعمارية، فان الحداثة يجب أيضا أن تطال هذا الكائن المسكين الذي لا مكان له في المستعمرة الحديثة. وها هي الصورة التي التقطها المستكشف البريطاني 'اليانور دي ريتي'[10] تجسد لنا هذا المعنى بامتياز دون الحاجة إلى انسلال الأقلام واختراع القصص البطولية.

In Modern Tangier [E. P. Griffen, Esq.

في طنجة الجديدة

وفي الجانب الآخر تبتعد عدسة المصور الفوتوغرافي الاستعماري عن الترميز المتخلف لصورة الحريم المضطهد الحافي القدمين إلى ما سماه الكاتب الجزائري مالك علولة،"الحريم الكولونيالي."

ويعتبر كتاب مالك علولة (1986) تجسيدا حقيقيا للخيال الذكوري الاستشراقي حول المرأة العربية. فبعد تجميعه لكم هائل من الصور، خلص مالك علولة إلى أن رغبة المصور الأوروبي في أخذ الصور والتركيز على المرأة إنما هو بدافع ممارسة العري على هذا الكائن الذي غوّلته السلطة الدينية حسب الدوائر الغربية. وهكذا فان "المرأة المحجبة"، يقول علولة، "هي أكثر إثارة بالنسبة للمصور الكولونيالي من نظيرتها الأوروبية المتبرجة." فتسربلها من الرأس إلى أخمص القدمين بثوب أو كتان أبيض

[10] مستكشف ومغامر بريطاني دخل الى المغرب خلال فترة الحماية وكتب كتاب حول المغرب سماه:
Holidays in Morocco: travels to the farthest West

وتغطية وجهها بلثام أسود مع ترك فتحة العين، يؤدي نفس الدور الذي يقوم به المصور، إذ أن فتحة العين تشبه إلى حد كبير عدسة المصور التي تجعل كل شيء هدفا لها. "وأمام هذا التحدي الذي يجعل المصور أيضا موضوعا للنظر والالتقاط، فانه يرد بعملية انتهاك مزدوج، حيث ينزع الحجاب عن المُحجّب ويقدم تمثيلا صوريا للمُحرّم" (علولة، 2001، ص 13).

وهكذا يمكننا التأكيد على أن التصوير الفوتوغرافي قد نجح إلى حدّ ما في تحويل مجهودات المصورين الأوروبيين إل'فتوحات' استعمارية، حيث نجح الساسة وقادة الحرب في الاستفادة من الكثير من الصور وترجمة مضامينها إلى خطط عسكرية لإنزال الجنود وبناء الحصون والتحكم في المستعمرات. غير أن التصوير أظهر كذلك الخلفيات الفكرية والدينية والمذهبية والسياسية لهؤلاء، رغم أن أحكامهم ظلّت قاصرة ومتباينة وخصوصا عندما تعلق الأمر بالمرأة، إذ ساهم عدم قدرتهم على التخلص من الأفكار المسبقة المتراكمة في تأجيج ذلك الصراع المرير بين الشرق والغرب. وهكذا فان الصورة الاستعمارية رغم ما قيل إنها مارست عنفا رمزيا ضد المرأة المغربية، فإنها أعادت ترتيب البناء والمساحة من حيث العنصر الجمالي وكذا من حيث دور الشاهد على حقبة تاريخية مهمة وذلك لمصلحة الجميلة المحجبة التي أحسَرت عين المستعمر المتلصّص وجعلته يظن آثما أن صوره وأحكامه تخدم المشروع الامبريالي الكبير.

وبهذا يمكن القول بأنه لن يدهشنا تستر خطاب هاريس في تلافيف صوره والتي تفسر مرجعية أيديولوجية قائمة وسابقة لعملية التصوير. كما أن المخزون الثقافي والذاتي والعاطفي يشتغل في "فضاء المغايرة" ويتغدى على كل ما هو ميثي وسرابي ومتخيل. والأهم ما في الأمر هو أن صور هاريس لا تنبع من طبيعة المنظور اليه le regardé، وانما من طبيعة المكونات السوسيو ثقافية والنفسية للناظر le regardant. غير أن الثقافة لا يمكن "اختزالها في الايديولوجيا" كما يذهب الى ذلك عبد الله العروي لأن التمسك بمفهوم الثقافة لا يرى فيه "مجرد خيار أولي في جملة ممكنات أخرى للتطور، بل تحدد من وجهة نظر تاريخية لان العوامل المؤثرة في الأثر الثقافي تكون بالضرورة هي عوامل التطور الاجتماعي أو التاريخ الوقائعي" (العروي، 1993).

السياق التاريخاني

لا يمكن الحديث عن والتر هاريس دون أن نمتلك وعيا بمستوى الكتابة التاريخية حول فترة مكوثه في المغرب والتي استمرت بين 1887 إلى 1933. فهذا النوع من الكتابات قد أحدث ارتدادا في الأوساط الأكاديمية المغربية حيث ظلت الكتابة حبيسة السرد التاريخي لوقائع معينة منحصرة جغرافيا وأحيانا مشوهة حكيا ووصفا. وقد حاول الدكتور عبد الله العروي استدراك هذا العطب التاريخي في كتابه مجمل *تاريخ المغرب* من خلال استضافة فكر الآخر في كتابته لتاريخ المغرب والتركيز على بعض اللحظات التاريخية بكل ايجابياتها وسلبياتها، مع إعطائها بعدا تحليليا هيجيليا وفوكوديا. ولا يقتصر الأمر هنا على التعامل مع أكوام من الوثائق التاريخية، بل فقط الارتكاز على الآليات النقدية والنظر الى الأحداث من داخل حلبة التاريخ. وفي هذا الاتجاه يمكن القول بأن الكتابة المغربية المعاصرة حول حقبة هاريس وغيره من الأجانب الذين دخلوا المغرب منذ منتصف القرن الثامن عشر إلى منتصف القرن العشرين لا تخلو من السرد التوثيقي والانطباعات العابرة وإبراز هواجس هؤلاء الكتاب لتوريط الخطاب الكولونيالي خدمة لقضية التحرر الوطني. لكن هذه العوامل التي ساهمت في تحفيز عملية الإبداع عند هؤلاء لم تنتج نمطا كتابيا يتجاوز الطرح التقليدي السردي والوصفي نحو إبراز ذلك اللقاء العاصف بين ثقافة المركز وثقافة

الهامش. وبذلك يستمر الغموض في تنظيرات الكتابة المغربية التي حاولت وتحاول رسم ملامح التأسيس لخطاب نقدي تفكيكي يمتلك جرأة ادوارد سعيد لرفع العتمة عن الاستشراق في سياقه المغربي.

لقد تزامن وجود والتر هاريس بالمغرب مع فترة تحول دراماتيكية لبناه الاجتماعية والسياسية. كما أن صرح الهوية الذي استمات المغرب لعقود في الحفاظ عليه بدأ يتهشم جراء استعداد القوى الاستعمارية وخاصة فرنسا واسبانيا وبريطانيا لحيازة البلد وإلحاقه 'بركب الحضارة الأوروبية.' هنا تتضح حيثيات الحفر المعرفي حول المغرب وأهدافه وأنساقه ومن يقف وراءه. فكاتب *فرنسا، اسبانيا والريف* ساهم بمشاركته في الفضاء المكاني والزمني في تعميق إدراك الهوية التاريخية والثقافية للمغرب عبر خطاب سردي يهدف إلى فك الاشتباك القائم بين نظم متصارعة تسابق إحداها الزمن للحفاظ على انغلاقها على يقينياتها التقليدية، كما تحاول الأخرى قياس نبض غريمتها وفهمها وتشخيصها والاطمئنان إلى 'حمايتها' بنعومة. ويظل هذا التصارع يراوح مكانه بين كل ما هو ظاهر ومستتر، حاضر وغائب، غريب ومألوف الا أن تتشكل تلك الرؤى الكولونيالية المتعالية التي تشكل صلب الانشاء الغربي حول المغرب في مقابل السرد التقويضي الذي يستعمل كل أشكال المقاومة اللغوية لنقد الاستعمار وتعرية خطابه.

خطاب التمثيل وسلاح التقويض

لقد أثار والتر هاريس من خلال هذا الكتاب عددا من المواضيع تتلخص في مجالات الهوية والسلطة والمعرفة والتاريخانية والثقافة. ورغم موسوعية هاريس فانه لا يتحدد بكونه الفرد المتحدث، بل يجب تجاوزه "ووضعه في مستوى متوار والنظر إلى منظومة العمل المنتج من طرفه في حقل معين" (فوكو، وتشومسكي، 2019، ص 10) كما يقول فوكو. كما أن التعامل مع هاريس لا يمكن أن ينحصر فقط في الأنساق اللغوية. بل يجب أن يتعداه إلى التعامل مع المسارات الخطابية" التي تتكون من عدة مبادئ وقواعد وشروط" (فوكو، وتشومسكي، 2019، ص 11). وهكذا فسرد الأحداث التاريخية وتقديمها في كتل كلامية لن يكون له معنى دون "إخضاعها لمستويات الحضور والغياب وإبراز العلاقة الناشئة مع المتلقي، مع العناية بالأثر والدوافع" (فوكو، وتشومسكي، 2019، ص 43) بتعبير ميشيل فوكو. كما أن أي موقف نقدي تجاه هاريس يجب أن ينطلق من خلال "طرح سؤال المعرفة وتعالقها بالمرجعيات والمظان الأصلية التي أنشأت هذا الخطاب" (فوكو، وتشومسكي، 2019، ص 12). وهكذا تتضح المعالم المنهجية لدراسة خطاب هاريس، حيث تنطلق من فهم الخطاب الكولونيالي الذي يمثله هاريس، والذي يظهر التنوير والرحمة والتحضير ويستبطن الاستعمار والاستغلال والهيمنة. غير أن البحث في الأسس المعرفية والفلسفية لهذا الخطاب يجب أن يركن الى منهجية نقدية تأخذ بتلابيب نظرية ما بعد الكولونيالية التي تشكلت معالمها مع كتاب الاستشراق للناقد الفلسطيني الأمريكي ادوارد سعيد وما ترتب عنها من دراسات نقدية عند نقاد الشرق وخاصة هومي بهابها وغياتري سبيفاك وعبد الله إبراهيم وسعد البازغي وغيرهم. ولعل المقاربة النقدية التي ننتهجها تأخذ بعين الاعتبار زمن السرد الذي ينقسم الى فترتين متجاورتين: فترة التمهيد الاستعماري وفترة الاحتلال العسكري الفعلي.

فبالرجوع الى الفترة الأولى، نجد أن سرديات الأوروبيين بما فيها هاريس ركزت على مواضيع الميث والصورة كما أسلفنا وذلك لتمثيل البلد والشعب الذي سيصبح في حوزة الامبريالية فيما بعد. لكن المثير في هذا الفعل هو أن التمثيل نابع من تجارب ذاتية وهو بذلك عبارة عن إعادة انتاج ذهنية عبر التخيل لتلك التجربة. وفي هذا الإطار، لا يمكن وصف تمثلات هاريس بالواقعية

رغم أن رحلته الى المغرب حدثت بالفعل على أرض الواقع، ذلك لأن تصور الأنا في الفضاء المقتحم يظل دائما محكوما بالمرجعيات الثقافية والحضارية والسياسية. كما أن الرحلة هي بالضرورة ذهاب وعودة وإن انتهت باللاعودة. وهي عودة نحو الذات التي خرجت وتغربت مؤقتا لتحكي وتخبر عن الفضاء المقتحم بعد التعرف عليه ومقارنته بالفضاء الأصلي الذي يشكل مجتمع وثقافة النحن التي تقوم بتمثيل الآخر. وفي هذا الصدد يمكن أن نتفق مع ما ذهب اليه ادوارد سعيد وهومي بهابها وغياتري سبيفاك بكون الإنتاج الغربي عن الشرق سواء كان في مجال الرواية أو السينما أو الفن يظل عبارة عن تمثيلات ذاتية تكونها الشعوب عن بعضها البعض. ولهذا كان التمثيل دائما ينطلق من الفضاء الأيديولوجي الذي يتموقع داخله السارد. وهنا نذهب الى ما ذهب اليه عبد الله العروي في نقده لمنهجية الأنثروبولوجية الثقافية لغرونباوم، والتي يعتبرها معيبة بسبب فقدانها للرؤية التاريخية في تناولها للمواضيع المدروسة. وكل ذلك يؤدي حسب العروي الى انتاج أحكام غير مطابقة و "تأجيج السجال الاديولوجي" (فوكو، وتشومسكي، 2019، ص 12)، وذلك كما أسلفنا في مقالنا المعنون *بترجمة الاختلاف في مملكة السلطان الافريقي للصحفي البريطاني والتر هاريس* (العشيري، 2021) والذي نشر في المجلة الدولية للسانيات والأدب والترجمة الصادرة عن دار الكندي بلندن. لقد راق لنا الاعتماد على مناظرة العروي وغرونباوم في هذا السياق نظرا لقناعتنا الراسخة في أهمية منهجية العروي التاريخانية الصارمة لأنه يعتبر منهجية غرونباوم الأنثروبولوجية الثقافية والاثنوغرافية تبخس العامل التاريخي وتجافي منطق تطوره، كما أنه، أي العروي، يرى فيها وجها ايديولوجيا للمركزية الغربية التي ترفض التكافؤ وتعنى بالبنى واليقينيات المغلقة بدلا من الاعتناء بالتحولات والتغيرات بتعبير أرسطو.

وبالنسبة للفترة الثانية والتي يقصد بها فترة الاحتلال الامبريالي الفعلي للأرض، فان مهمة هاريس تمحورت حول تكريس سلطة السيادة الأوروبية على المغرب. هذه الفكرة التي أراد لها هاريس ان تكون ذات حمولة فلسفية حيث تمتد جدورها الى جمهورية أفلاطون وترتكز على مبادئ الخير والضياء والتطور. وهي نفس القيم التي جاء الاستعمار الأوروبي، حسب زعم هاريس، لترسيخها في المغرب عن طريق حماية البلد ونشله من أوحال التخلف والبدائية. فزمن الاستعمار عند هاريس نشأة للمكان، مكان ممارسة الفعل الامبريالي. لكن الزمن عند تحليله على مقاس الديالكتيك الهيجيلي، يظهر بما لا يدع للشك بأنه مجرد ومثالي وهو الوجود الذي بينما يكون لا يكون وبينما لا يكون يكون. ولا ينبغي في هذا الصدد أن نبرز تحامل هاريس المكاني على زمن الاستعمار ومكان وقوعه لان محتواه محسوس وظاهر دون الحاجة الى الأدوات الحدسية أو القيام بثورة كوبرنيكية.

ومما لا شك فيه أن هاريس قد قدم خدمة معرفية كبيرة للمؤرخين المغاربة سواء منهم الذين يدرسون التاريخ بمنهجية الصقلي والمختار السوسي التقليدية، أو الذين يتعاملون مع التاريخ في بعده الفلسفي أمثال عبد الله العروي. ومما يزيدنا يقينا أن توفر الكتاب في نسخته العربية سيزيد من توسيع دارة الاستقبال عند القارئ المغربي والعربي سواء كان من الدارسين المتخصصين أو القارئين المهتمين بهذا المجال. وهكذا فان ثقل هذا الكتاب ومواقع الدسم فيه تتطلب تأسيس منهجية جديدة تتجاوز خطاب التعميم والقولبة والتنميط. وما ترجمة كتاب هاريس سوى رسيس النقد وأول الحمى لتقويض خطابه.

على سبيل الختم

لقد ساهمت ترجمتنا لكتاب *فرنسا، إسبانيا والريف* لوالتر هاريس في لفت الانتباه إلى المضمون التاريخي لهذا الكتاب. فالحكم على ما جاء فيه من أخبار يفترض من باب المناصفة أن نقارنه بما كتب عن المغرب في تلك المرحلة من طرف العرب

والغربيين على حد سواء. والهدف من ذلك هو الابتعاد قدر الإمكان عن النقد الذي يمكن أن يتحول إلى "سجال إيديولوجي" بتعبير عبد الله العروي. غير أن الشيء الذي لا مرية فيه هو أن خطاب هاريس ينبني على احتجاج واهن ومعرفة فيلولوجية أرشيفية بدلا من ارتكازه على رؤية شمولية جوهرانية تتجمع فيها معلومات ذات مضمون تاريخي مركّز. ورغم كل هذا، فان ما أنتجه هاريس من مادة معرفية لا يمكن استيعابها إلا في ضوء شروط "الوعي الترجمي وحدود تداوله في مختلف الخطابات المعرفية" (الشنتوف، 2019)، مع الاستعادة التأويلية لتلك المعرفة وإقحام مجالات التاريخ والثقافة والإنسية والاثنوغرافيا في هذا الغمار.

وختاما نقول بأن هدفنا تمحور منذ القراءة الأولى لكتاب والتر هاريس حول سد النقص في الرؤية التاريخية حول كتابات الرحالة الأجانب في المغرب مطلع القرن العشرين. ولم يكن اختيار هذا المرجع عبثا، بل انطلاقا من نظرتنا الصارمة لضرورة تصحيح ما أفسده هاريس، وانتصارا للفكر التاريخي المغربي الذي يرفض منطق التحامل، ويعنى بالأطوار والتحولات المتغيرة والعلاقات المتجددة بتعبير أرسطو بدلا من الركون إلى الماهيات الثابتة والبنى المغلقة. إن وظيفتنا التنويرية لا تروم فقط الإفصاح عن الانتساب الثقافي الذي دفعنا إلى وقف هذا النزيف في الكتابة الاستشراقية حول المغرب وإعادة ضخ الحياة في الخطابات المضادة لها، ولكن تروم أيضا تقويض تلك المعادلة الايديولوجية التي وضع هاريس حدودها على نحو: (*المغرب = التخلف والفوضى = الحماية*). وكل ما يبرر استمرار وعينا بضرورة إعادة فحص يقينيات الغرب التي ترجمها هاريس في كتابه هو صوابية منطلقاتنا وعدالة قضيتنا.

قائمة البيبليوغرافيا

المراجع العربية:

- العروي، عبد الله. (2007). *مجمل تاريخ المغرب*. المركز الثقافي العربي.
- السوسي، محمد المختار. (2015). *أصفى الموارد في تهذيب نظم الرحلة الحجازية للشيخ الوالد*. بيروت: دار الكتب العلمية.
- بلانشو، موريس. (2018). *كتابة الفاجعة* (عز الدين الشنتوف، مترجم). الدار البيضاء: دار توبقال.
- بلقزيز، عبد الإله. (2017). *نقد الثقافة الغربية في الاستشراق والمركزية الأوروبية*. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- حميش، بنسالم. (2011). *العرب والاسلام في مرايا الاستشراق*. القاهرة: دار الشروق.
- تشومسكي، نعوم؛ وفوكو، ميشيل. (2019). *عن الطبيعة الإنسانية* (أمير زكي، مترجم). القاهرة: دار التنوير للطباعة والنشر.
- تيزيني، طيب. (1996). *من الاستشراق الغربي الى الاستشراق المغربي: بحث في القراءة الجابرية للفكر العربي وفي آفاقها التاريخية*. بغداد: دار الذاكرة.
- ذاكر، عبد النبي. (2018). *المغرب والغرب؛ نظرات متقاطعة*. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

المراجع الأجنبية:

- Aloula, M. (2001). *Le harem colonial: images d'un sous-érotism*. The University of Mannisota Press.
- Bhabha, H. (2012). *The Location of Culture.* London & New York. Routledge.
- Said, E. (1978). *Orientalism*. London: Routledge.
- Said, E. (2014*). Culture and Imperialism*. USA: Random House.
- Said, E. (2008). *Covering Islam*. USA: Random House.
- Maghraoui, D.(ed.). (2013). Revisiting *the Colonial Past in Morocco*.Canada: Routledge.
- Evans, L. Harris. (1932). *Some Aspects of French Imperialism in Morocco Since the World War*.France.
- Harris, W. (1927*). France, Spain and The Rif*. London: Arnold & Co.

Romanization of Arabic Bibliography

- Laroui, Abdullah. (2007). *Moujmal Tarikh L-Maghrib [The entire history of Morocco]*. Arab Cultural Center.
- Al-Sousi, Muhammad Al-Mukhtar. (2015). *aṣfi al-mwārd fī thḏīb nẓm al-rḥlẗ̈ al-ḥğāzīẗ̈ llšīẖ al-wāld [The clearest resources in refining the systems of the Hijazi trip to Sheikh Al-Walid]*. Beirut: Scientific Books House.
- Belkeziz, Abdelilah. (2017). *nqd al-ṯqāfẗ̈ al-ġrbīẗ̈ fī al-āstšrāq wālmrkzīẗ̈ al-ʾaūrūbīẗ̈ [Criticism of Western culture in Orientalism and Eurocentrism]*. Beirut: Center for Arab Unity Studies.
- Hamish, Bensalem. (2011). *Al-Arab wa L-Islam fi Maraya Al-Istichraq [Arabs and Islam in the mirrors of Orientalism]*. Cairo: Dar Al-Shorouk.
- Tizini, Tayeb. (1996). *mn al-āstšrāq al-ġrbī al-i al-āstšrāq al-mġrbī: bḥṯ fī al-qrāʾẗ̈ al-ğābrīẗ̈ llfkr al-ʿrbī ūfī afāqhā al-tārīẖīẗ̈ [From Western Orientalism to Moroccan Orientalism: A study of the Jabrite reading of Arab thought and its historical horizons]*. Baghdad: The Memory House.